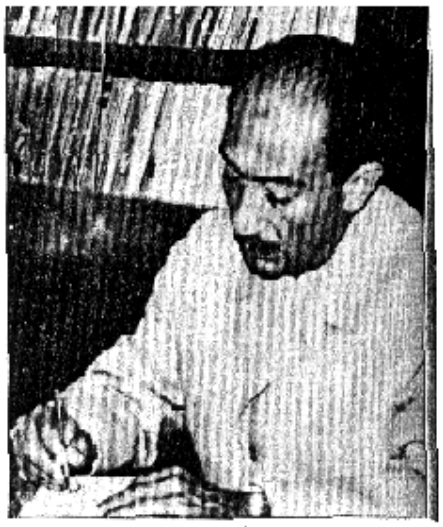

فجأة أضيئت الغرفة: لحظة لا أنساها أبدا

هذه صفحات جميلة من «أوراق» الرئيس السادات.. إنه فلسفة فى الحياة. فمن المؤكد أنه صاحب تجارب غنية عنيفة، خرج منها بالمعنى الواضح الذى آقتنعه بالسير فى الطريق الذى اختاره لنفسه، والذى اختاره له الله.

وقد مرت على الرئيس السادات لحظات كان فى استطاعته ان يبطش وان ينتقم وأن يشفى، ولكنه لم يفعل. كم مرة كان منها، وكم مرة كان قاضيا يحاكم الذين اتهموه..

وكان ينظر إلى هذا الوضع الجديد الذى جعله أقوى وأرفع، ورأى فى ذلك اعتذارا تاريخيا كافيا عن كل الذى أصابه قبل ذلك..

ثم إنه كان شابا لم يعرف اليأس، وهذه هدية إلى الشباب الذين فى مثل سنه.

لعلها لحظات تأمل. أستعرض فيها أحداثا من حياتى.. وأتوقف عندها. وأحاول أن أستخرج منها المعنى والحكمة وأسوقها لطلائع مصر من الشباب.. فقد كنت شابا مثلهم. وكنت أتابع ما يجرى حولى باهتمام شديد. ومن غير الاهتمام الشديد، والاشتراك فيما يجرى حولنا، من الصعب أن يكون للانسان دور فى حياته. فإذا كان له دور وآمن به، فمن الصعب أن يزحزحه أحد عن هذا اليقين. وإلى هذا اليقين النفسى والثقة الدائمة فى نفسى وفى ربى وحبى لوطنى: أعزو كل ما أصابنى وكل ما أصبت بعد ذلك..

رأيا أولا وأخيرا فلاح. أحتفظ للريف بكل قيمى كما هى، وكل الامى أيضا. ويوم دخلت السجن انسدت كل أبواب الفرج فى وجهى. ويوم فصلت من الجيش ويوم انتزعت من أسرتى. ويوم اختفت الحياة بين جدران مظلمة باردة. أدركت أنه لم يبق لى إلا قريتى.. إلا الريف. إلا الأرض والزرع وأهلى.. وإلا الحياة البسيطة. كسرة الخبز وشربة الماء. هكذا تعلمت من جديد أول درس فى الانتماء إلى الأرض.

ولا أدعى أنى أملك فى قريتى شيئا: لا مالا ولا نسبا ولا حسبا ولا طبقة. لا شىء إلا نفسى. وليس هذا الذى أملكه قليلا. وقد كشفت لى الأيام أننى أخفى تحت جلدى شعورا غريبا بأننى «شىء آخر».. وبأننى مختلف عن الآخرين.. وأن هذا الاختلاف عن الآخرين يضاف الى حسابى، ولا يخصم من حسابى.. إن فى داخلى «شعورا بالامتياز».. لا أعرف معنى هذا الشعور ولكن هذا الشعور يعوضنى عن الضياع الذى حسست به فى السجن وفى الشوارع.. إن هذا الشعور هو الذى يرشح لى معالم الطريق، وهو الذى يضىء لى يوم تظلم الدنيا، وقد أظلمت كثيرا.. وهو الذى يتحول إلى غطاء فى الليلة الباردة، وإلى أمان فى الليلة التى أرتعد فيها خوفا..

وليس هذا الشعور بالامتياز غرورا، ولا زهوا ولا رغبة مكبوتة فى الشىء والانتقام.. لا شىء من ذلك. فليس عندى ما أزهو به.. فما الذى يمكن أن يزهو به فلاح صغير فقير.. وقد اختلطت حياتى بأحداث كثيرة وأسماء كثيرة.. أسماء للأشخاص وللأماكن. وأنا ـ ولله الحمد ـ استمتع بذاكرة تصويرية قوية.. فأنا أستطيع أن أتذكر «هيئة الأشياء» وشكل الأشخاص... فأتذكر أن فلانا جاءنى من ثلاثين أو أربعين عاما، وكان يرتدى قميصا وبنطلونا وكان لون القميص أبيض وكان لون البنطلون رماديا.. وأكثر من ذلك أنى أستطيع أن أتذكر التواريخ بنتيجة الدقة ولابد أن يكون سبب ذلك أن ذاكرتى مغناطيسية. أما اسم ذلك فهو أننى شديد الاهتمام. وكل شىء عندى له معنى وله دلالة. وهذا الاهتمام هو المغناطيس الذى يجتذب الأشياء والأشخاص والأحداث فى ذاكرتى.

■■■ وقد عاونتنى هذه الذاكرة كثيرا وقد لاحظت ذلك على نفسى وأنا فى السجن. فكان خيال يروح ويجىء بين الطفولة والرجولة، ذهابا وإيابا.. وكنت فى بعض قراءتى فى داخل السجن أحاول أن